الدخول إلى القاهرة من بوابة الفخامة ـ مدينة العشرين مليوناً تفيض بالتاريخ والأسرار:

الملك فاروق أكثر حاكم مصري اهتم بالسلاح... ودليل سياحي ترجم اسم أبو الهول لسياح إنكليز بـ«أبو الإرهاب»

في قصور الملوك السابقين.. قنابل تحمي مجوهرات الأميرات.. وأقلام رصاص بشكل مسدسات وعكاز ينقلب لبندقية

يحيى القيسي*

■ لست صاحب خبرات أثيرة في القاهرة، ولا من الذين تعودوا زيارتها، وكنت كلما حدثني الأصحاب عنها أشعر بنقص ما يعتريني لأنه لم تتح لي الفرصة لمعرفتها، حتى جاءت أخيرا من خلال دعوة لرحلة سياحية لمجموعة من الصحفيين العرب، ولم تكن الرحلة موجهة من وزارة السياحة المصرية مثلا، ولا من وزارة الثقافة بل جاءت من القطاع الخاص «فندق الفور سيزن»، وهذا أمر يحسب لهم، ووجدتني ألبي دعوة جاءت أساسا لـ«القدس العربي» في لندن، ثم حولت إلي لرغبتي الجامحة في زيارة القاهرة، ولا سيما حينما علمت بأن برنامجها قصير ومكثف، يحاول أن يقدم إطلالة بانورامية على أبرز معالم المدينة، ومآثرها العمرانية والأثرية.

ولقد حرت وأنا أسعى لتدبيج هذا المقال أن أقع في مدح ما يبدو ناشزا عند أهل البلاد من الضخامة والغنى الذي لا ينقضي للمعالم الفندقية فلست مثل زملائي الصحافيين الذين رافقوني في الرحلة وجاؤوا من مجلات في الكويت والسعودية ودبي تصدر بالعربية والإنكليزية، وتتخصص في جانب منها بهذا النوع من الأمكنة، تفصيلا، وصورا، بل ويمكن أن تشير إلى أصحاب العمل ومدراء التسويق، دون حرج، ولكني في «القدس العربي» سأجتهد أن أنقل إطلالتي السريعة على القاهرة وأهلها، حتى لو كان الولوج إليها من بوابة الفخامة التي يحلم بها كل زائر، حيث كان ينتظرني في المطار سائق وليموزين، ويستقبلني في الفندق «الفصول الأربعة في بلازا النيل» احتفاء باذخ، كضيف على مصر من خلالهم، لكني سرعان ما اندمجت مع المكان وشعرت بأنني بين أناس أعرفهم من قبل، يغمرون القادم بالابتسامات، وبالغ الترحيب. ولقد أطللت من شرفتي في الطابق الواحد والعشرين على منظر بهي، لم أستطع أن أتشربه دفعة واحدة، كان النيل ينساب رقراقا، والقوارب تموج على صفحته، وبدت لي القاهرة باتساعها الذي لا ينتهي، وأبراج فنادقها، وعماراتها التي تنغرس في الزمالك والضفة الغربية للنيل مثل عالم خرافي..

التقيت برفاقي من الصحافيين والصحافيات على الغداء (معن وسنثيا ومعالي ومحمد ونيفين) حيث احتفى بنا مدير الفندق لوكا اليرغي الإيطالي دائم الابتسام، ومديرة العلاقات العامة هبة بلال القريبة إلى القلب، وهي شابة ليبية متزوجة من مصري عاشت في النمسا ودرست في لندن، حتى تبلبل لسانها باللغات بكل مهارة، وهناك لي سبنكس اللندني اللطيف المعشر الذي نظمت مؤسسته الرحلة، ورافقنا بدأب في تفاصيلها، وبدا مثلي مبهورا بتلك اللوحات التي لا تقدر بثمن في متحف محمود خليل لمونيه وفان غوخ وديلاكروا..!

ورود ولوحات تملأ البصر

أول ما يصادف الداخل للفندق تلك الآنية الزجاجية المتعددة الأشكال، والبالغة الضخامة، وهي تحتوي على أضاميم من الورد والأزهار بشتى الألوان، بدا أن تأثير الفالنتاين لم يغادر قاعة الدخول بعد حيث ورد العشاق الأحمر، ولعل من الطبيعي أن يصادف المرء في كل ركن أو على كل طاولة في مطعم أو مشرب ورودا فاتنة تجلو البصر مما علق به من العاديات، ولعله من التقاليد التي يتميز بها «الفصول الأربعة» ذلك الاهتمام غير العادي بالورد وجمالياته، وعرفت حين سألت أن امرأة تدعى ملك طاهر هي التي تتولى مثل هذا التنسيق البالغ الأناقة، أما اللوحات التشكيلية والمنحوتات والصور الفوتوغرافية الأصلية، فهي تملأ الجدران، وتظهر في الزوايا والأركان وقرب الأدراج وفي الغرف، وهي لفنانين مشهورين ومعظمهم من المصريين، مثل فاروق حسني وزير الثقافة، فرغلي عبدالحفيظ، جاذبية سري، اسلام النجدي، محمد رزق، رنا شلبي، صلاح طاهر، محمد عبلة، حسين الجبالي، عفت ناجي وغيرهم. وقد صدر أخيرا مجلد في مئتي صفحة يضم الأعمال التي يحتويها الفندق ومعلومات عن الفنانين. وسيكون له وقفة منفصلة في مكان آخر قريبا. وبحسب تعبير أوليفيه ماسون المديرالعام «من النادر أن يستخدم الفن كأحد الوسائل التسويقية للفندق،إن معايير الاختيار بسيطة وواضحة فأنا أريد أن يكون العمل الفني انتقائيا ويحمل فكرة ومنهجا».

إذن في نزل يرتفع ثلاثين طابقا، ويضم 365 غرفة فاخرة، و77 جناحا، ينشغل العاملون بإرضاء زبائنهم بالطعام والشراب، والمسابح والمساجات، وكل وسائل الترفيه يبدو التشكيل هنا فعلا فنيا يقود المقيم والزائر إلى تذوق الأعمال والتفاعل معها في معرض مفتوح ليل نهار، كواحد من المقترحات الجمالية التي تعطي الجانب الثقافي دوره،وأثره ولو بعد حين.

قصر عابدين ونياشين الملك فاروق

منذ صباح اليوم الثاني بدأنا جولة لا تنسى في متاحف قصر عابدين، هناك يمكن للزائر أن يرى تاريخ مصر القديم والحديث، ولا سيما في الجانب الحربي منه، صحيح أن قاعات القصر و ردهاته قد تحولت كلها إلى خزائن عرض محفوفة برجال الأمن وكاميرات المراقبة، إذ تضم تحفا وكنوزا وهدايا لا تقدر بثمن جمعت من أماكن متفرقة، ومن عهود وأزمان متفرقة. فهنا يتجاور عهد محمد علي الأكبر مع من جاء بعده من أحفاده أو قواده مثل الخديوي وفاروق مع الهدايا التي قدمت للرئيس حسني مبارك وجيهان من العصر الحالي، على أن ما أذهلني تلك العناية الخاصة بالحرب وأدواته، فالملوك والسلاطين والأمراء والرؤساء يحرصون في أغلب هداياهم على تقديم أسلحة، فهذه سيوف من تركيا وإيران، وخناجر من البحرين واليمن، ورشاش كلاشينكوف من الذهب الخالص من صدام حسين. ولعل أكثر الملوك ولعا بالأسلحة على اختلاف أشكالها ومصادرها كان الملك فاروق، فهناك قاعات متكاملة تضم مسدساته وبنادق صيده، بل رؤوس الأيائل والظباء التي صادها في مجاهل العالم. كان يبدو منذ طفولته متخذا الأسلحة وسائل لعب وترفيه. ولهذا فإن دراسة تلك الأسلحة النادرة التي تضمها مجموعاته الخاصة تحتاج إلى الكثير من الوقت، فمن بلجيكا وألمانيا واليابان وفرنسا بنادق ومسدسات لا مثيل لها، بل إن بعض الأميرات كما يبدو طلبن تصميما خاصا لصندوق مجوهراتهن، لضمان عدم سرقتها، إذ سرعان ما تندفع أربعة فوهات لمدافع صغيرة لمن تسول له نفسه العبث بالجواربر، وهكذا يندفع الموت الزؤام على شكل طلقات من زوايا مختلفة لمن يرغب الذهب أو يسعى إليه سبيلا، فما بالك بمن يقترب من الأميرة نفسها..!

ولقد عجبت من فنون الموت وهي تأتي على شكل محبب، فهذا قلم حبر بطلقة واحدة أو لنقل مسدساً مموهاً على شكل قلم، وثمة عكاز ينقلب إلى بندقية أيضا في الحالات الطارئة.

أما الملاحظة الثانية التي أثارت انتباهي فهي النياشين والأوسمة والإشارات التي كانت تخص فرق الجيش وأوسمة التبجيل وإشارات التمييز بين العاملين في المراتب المختلفة، وهي تدل على رفاهية مبالغ فيها في الاهتمام بالشكليات دون القصد بالتوغل بالعمل الجدي، ولعل من يرى تلك الأواني الزجاجية والبلور، والفضيات والبورسلان الصيني يكتشف أي بذخ كان يعيش فيه فاروق وأمراؤه وأتباعه وجواريه،هنا يرى الزائر مئات القطع من الصحون والكؤوس والشمعدانات والثريات، والملاعق والسكاكين، والجفنات والقصاع، من شتى الأشكال والأجناس، شهدت ذات زمان غابر ليالي الأنس في قصور القاهرة،وليس في فيينا..!

إن المؤرخ وعالم الاجتماع والموثق والفنان والصانع يجدون مادة خصبة في كل المعروضات التي ترصد حالة اجتماعية وتطوراً حضارياً وصل درجة لا يمكن تجاهلها، هذا عدا عن العمارة نفسها وتشكيلات الحدائق وتلك المدافع الرابضة الصامتة التي تدل على عهود غابرة..!

قصر محمد علي للاحتفالات

كان من ضمن رحلتنا زيارة قصر محمد علي الصيفي المخصص للاحتفالات أساسا، وهو لم يفتح بعد للعموم، ولكن جهود هبة بلال بدت واضحة مع وزارة الثقافة التي تشرف عليه لفتحه لنا، وهو عبارة عن مبنى على شكل أربعة أروقة ضخمة تحيط ببركة واسعة، جعلت في منتصفها دكة لجلوس الموسيقيين والمغنين والراقصين، ولعل محمد علي باشا قد رغب في تخصيص القصر لضيوفه، للتسامر في ليالي الصيف خصوصا، والتمتع بالغناء، أو ركوب قارب صغير ليجوب فيه تلك البركة أو البحيرة المعتدلة، الأروقة الأربعة مزينة سقوفها بالرسومات ذات الطابع الإغريقي تحديدا، وربما هذا يعود لاستقدامه فنانين من اليونان وإيطاليا لينجزوا الرسومات والتزويقات التي بأشكال نباتية أو إنسانية، وذات ألوان ما تزال تحتفظ ببهائها حتى اليوم.

في زوايا الأروقة تقبع غرف أو قاعات مغلقة ذات طباع خاص،فهذه قاعة الجوز المغلفة جدرانها وأرضيتها بخشب الجوز الثمين، والمزينة بالتكوينات ذات الطباع الأندلسي أو المغربي، وهي قاعة على ما يبدو كان يستقبل فيها محمد علي ضيوفه قبل أن ينطلقوا إلى الأسرة والنمارق تحت الأروقة لمشاهدة الاحتفالات أو التمتع بالمياه والوجه الحسن، فيما الخضرة خلفهم حيث الشجر الكثيف الذي زحفت عليه المباني اليوم ولم تبق منه غير القليل.

ثمة قاعة أخرى اسمها قاعة الأسماء مزين سقفها بأسماء الباشوات من الشخصيات التي تولت الحكم، وقد رصعت بالخط العربي الجميل، ويبدو أن الأسماء قد تغيرت مرارا نتيجة تغير الحكام، وثمة قاعة البلياردو التي كانت تضم على ما يبدو طاولة بلياردو، وهي لعبة الباشا الأثيرة، وهناك قاعة الطعام التي تزينها لوحة زيتية لإحدى الأميرات وكأنها رسمت للتو، تكاد تنبض بالحياة وتنطق. فسبحان مقلب الأحوال، وجاعل مثل هذه القصور التي كانت عامرة أثرا بعد عين.

على أنه من الجميل اهتمام الدولة بمثل هذه المعالم، وترميمها وفتحها للسياح، ولكن يبدو من الضروري الاهتمام بالجانب الترويجي الحداثي لمثل هذه الأماكن، فليس من المعقول أن لا يكون هناك سي دي مثلا لمعروضات قصر عابدين، ولا أيضا موقع على الانترنت للتعرف عليه والاستزادة مما فيه، وهذا أمر بدا في أغلب الأماكن التي زرتها،فكم فيها من الكنوز التي تحتاج إلى التعريف فيها بشكل مشوق.

ولعل مما أثار انتباهي ذلك الاهتمام الخاص الذي أولاه محمد علي لنهضة مصر مع أنه ألباني الأصل، لقد بدا الرجل رغم ما بدا من انهماك ظاهري بالملذات والترفيه، رجل دولة وتأسيس رغب في أن يجاري الأمم الكبيرة ليصنع من مصر نموذجا يحتذى، ولقد شجعتني تلك المعالم التي تركها أو أنشأها أن أحرص على قراءة سيرة الرجل كما يليق به، وعرفت جزءا من هذه الشذرات:

«... ابتهج المصريون بخروج الفرنسيين من مصر، ولكنهم رأوا البلاد تموج بالقوات العثمانية التي كانت تضم أخلاطا من الجنود الأكراد والألبان و الأتراك وغيرهم. وسرعان ما أصبحوا عوامل فوضى واضطراب. حتى قرر زعماء الشعب وعلى رأسهم عمر مكرم عزل الوالي العثماني واختيار الألباني محمد علي بدلا منه. صحت عزيمة محمد علي على البقاء في مصر و التمسك بها وهذا هو الطابع الذي طبع تصرفاته سواء في سياسته الداخلية أو الخارجية. فقام بإصلاحات عديدة إدارية وزراعية من أجل تقوية مصر. فتقدمت الزراعة في عهده تقدما سريعا مما مهد الطريق لإصلاح الجيش حيث أدرك محمد علي أهمية تكوين جيش نظامي قوي. وقد تطلب تكوين الجيش وجهاز الدولة الجديد مجموعة من المثقفين والمتعلمين فأوفد العشرات من الشبان المصريين الى أوروبا لدراسة العلوم الحربية والفنية والهندسية والزراعية والطب واللغات والحقوق. كما فتحت للمرة الأولى في مصر المدارس العلمانية بجانب الأزهر والكتاتيب. وفي عام 1812 م فتح محمد علي لأول مرة في مصر دارا للطباعة، وصدرت أول جريدة مصرية هي الوقائع المصرية. وهكذا استطاع محمد علي بهذه الإصلاحات القضاء على مخلفات القرون الوسطى الأكثر رجعية وأنشأ جيشا وأسطولا قويا وجهازاً للدولة لتساير مصر بموجب هذه الإصلاحات التقدم الأوروبي الحديث....».

القاهرة القبطية والمساجد المملوكية

خصص لنا المنظمون وقتا لزيارة المعالم الدينية القبطية القديمة، وهي تجربة مثيرة إلى الدخول في كنائس ذات طابع تاريخي وأثري وما تزال إلى اليوم تعج بالمصلين، فحين وصلنا كنيسة القديس سيرجيوس كانت صلاة الأحد قد انتهت للتو، والقس في أحد الزوايا يخط عقد الزواج لأحد الشباب وخطيبته، فيما الزغاريد تنطلق من الأهل، كانت الكنيسة بأعمدتها التي ما تزال صامدة، وخشبها العتق موئلا سريا على ما يبدو لبعض القديسين والمتدينين. وكانت روائح البخور تضفي غموضا على تلك الأيقونات والصور القديمة، ولن ظل يسكنها من أرواح المصلين، وفيما كانت تعج بالسياح انتقلنا إلى التجول في الحي القبطي القديم وبعض معالمه قليلا قبل أن نخرج إلى منطقة القلعة، ومسجد السلطان حسن بن قلاوون المملوكي، كان والمسجد الذي يجاوره معالم إسلامية ضخمة قلما يجد المرء مثلها في العواصم العربية والإسلامية. وقد بدا أن المسجد كان مؤسسة كاملة وليس للصلاة فقط، فهناك مدرسة داخله يتلقى فيها التلاميذ العلوم الدينية، وهناك أربعة زوايا أو تجمعات تمثل المذاهب الإسلامية المعروفة (الحنبلية، الشافعية، المالكية، الحنفية)، وقد بدا واضحا أن أساتذة تلك المذاهب كانوا يلتقون بأبناء المذاهب التي تجاورت دون أي خلاف، ومن المؤكد أن عصورا من التسامح بلغت ذروتها في القاهرة وبغداد والأندلس حيث يتجاور المعتزلة مع غيرهم، ويكون للمسيحي واليهودي نصيب أيضا من المساواة، وحرية التدين، وهذا أمر صرنا نفتقده اليوم، حيث التعصب والانغلاق على الاجتهاد والرأي الأوحد هو الذي يعصف بالبقية.

لم نتمكن من الصعود إلى القلعة ورؤية معالمها فلا بد لها من زيارة متخصصة في مرات قادمة، وحتى القاهرة ذات العشرين مليونا من السكان، أثناء النهار، كما أشاع بعض الأصدقاء تحتاج إلى أسابيع من التوغل في مجاهلها وأحيائها التي تنام فوق كنوز تاريخية لا تنقضي.

الأهرامات الخالدة وبرديات الفراعنة

قبل وصولنا إلى الجيزة حيث الأهرامات، ولجنا إلى معهد مخصص للبرديات، وهو يصنع هذه الأوراق التي كان الفراعنة يكتبون عليها علومهم وأخبارهم، وأسرارهم وما تزال باقية الكثير منها بألوانها الأصلية رغم مرور نحو سبعة آلاف سنة عليها، وشرح لنا مسؤول المعهد عمليا كيف يتم صنع بردية من ورق نبات البردي الذي ينمو على ضفاف النيل، وله أضلاع ثلاثية عجيبة هرمية، كانت الرسومات التي يقلدون بها المخطوطات الأصلية زاهية الألوان، وتشبه إلى حد كبير تلك الأصلية، وراح الرجل يشرح لنا بعض رموز الفراعنة التي اشتهروا بها، وقد ازداد عجبي بعد مشاهدتي للأهرامات، وهي المرة الثانية التي أزورها من الخارج طبعا، ولكثرة ما قرأت عنها من نظريات في بنائها صرت أميل إلى تلك النظرية القائلة بأن تطورا علميا هائلا كان متوفرا للفراعنة وخصوصا لبعض ملوكهم الكبار، وربما أخذوه من عوالم غير أرضية، وهذا ما أتاح لهم أن ينقلوا بعض الحجارة الضخمة من مسافة 900 كلم متر إلى الجيزة، وأن يبنوا الهرم دون مواد اسمنتية تربط الحجارة مثلا ببعضها، وعلى كل حال ليس المجال هنا لشرح رؤيتي الخاصة لهذا الأمر، وأكتفي بأن أورد بعض التفاصيل عن هذه الأهرامات كما وجدتها في المراجع المتخصصة ونشرات الآثار حتى يدرك القارىء معي مدى ضخامتها:

«.. الهرم الأكبر أو هرم الملك خوفو هو أحد عجائب الدنيا السبع، شيد سنة 2650 ق.م تقريباً، ويعد أعظم بناء حجري في العالم، ينسب للملك (خوفو) من الأسرة الرابعة. قاعدة الهرم مربعة الشكل طول كل ضلع في الأصل 230 متراً، وكان ارتفاعه في الأصل 146 متراً، وأصبح الآن 137 متراً، زاوية بنائه 51،5 درجة، عدد الأحجار التي استخدمت في بنائه حوالي 2300000 كتلة حجريةً ووزنها في المتوسط 2،5 طن.

ويعتبر خوفو ثاني ملوك الأسرة الرابعة، تولى الحكم بعد وفاة والده (سنفرو)، اسمه الكامل (خنم خواف لي) أي (المعبود خنوم الذي يحميني)، يعتقد العلماء أنه أصلا من قرية (بني حسن) (منعت خوفو) أي (مرضعة خوفو)، ولا يعرف الكثير عن الأحداث الهامة في فترة حكمه، إلا أنه أرسل البعثات إلى وادي المغارة، حيث وجد اسمه وصورة تمثله، وهو يهوي على رأس شخص بدبوس قاتل؛ وذلك لإحضار الفيروز، وله تمثال وحيد عثر عليه في (أبيدوس) من العاج، نقش اسمه على كرسي العرش، وطول التمثال خمسة سنتيمترات، وهو الآن بالمتحف المصري حكم طبقا لبردية (تورين) حوالي ثلاث وعشرين سنة.

أما الهرم الثاني فهو هرم الملك خفرع وقد بناه جنوب غرب هرم أبيه خوفو، و ما زال محتفظاً بجزء من كسائه في قمته حتى الآن، يبلغ ارتفاعه 143،5 متراً وطول كل ضلع 215،5 متراً، وزاوية ميله 53،10، يقع في مستوى سطح الأرض، والمدخل يؤدي إلى ممر هابط، سقفه من الجرانيت وزاوية انحداره 22، ينتهي عند متراس ندخل منه إلى ممر أفقي، ثم ممر منحدر يؤدي إلى حجيرة يطلق عليها خطأ حجيرة الدفن وهي فارغة منحوتة في الصخر، ويستمر الدهليز إلى متراس آخر نجده يرتفع إلى أعلى بممر أفقي ينتهي بحجيرة الدفن، وهذه الحجرة سقفها جمالوني مشيد بالحجر الجيري، وتكاد تكون منتصف الهرم، أطلق خفرع على هرمه اسم (العظيم).

وخفرع هو الملك الرابع في الأسرة الرابعة تزوج من الأميرة (مراس عنخ) الثالثة يذكر المؤرخ مانيتون أنه حكم ستاً وعشرين سنة.

الهرم الثالث هو هرم منكاورع أو منقرع وهو ابن الملك خفرع، طول كل ضلع من أضلاعه 108،5 متراً وارتفاعه في الأصل 66،5 متراً وزاوية ميله 51 درجة، أما مدخله في الناحية الشمالية فيرتفع نحو أربعة أمتار فوق مستوى الأرض، ويؤدي إلى ممر هابط طوله 31 متراً، وزاوية انحداره بسيطة، سقفه من الجرانيت ثم بعد ذلك نجد دهليزاً مبطناً بالأحجار، ويؤدي إلى ممر أفقي فيه ثلاثة متاريس، وبعد ذلك نصل إلى حجرة الدفن، وعثر على تابوت خشبي عليه اسمه وبه مومياؤه محفوظة بالمتحف البريطاني أطلق (منكاورع) على هرمه اسم (المقدّس).

أخيرا نصل إلى تمثال (ابو الهول)، يقال ان الملك خفرع قام بنحت هذا التمثال الضخم بوجه انسان وجسم أسد رابض بقرب الأهرام منذ نحو 4500 عام وكان معظم الوقت مدفونا حتى رقبته في الرمال التي حمته غوائل الزمن. ومنذ اكتشافه في العصور الحديثة تحول ابو الهول الى فريسة للريح والماء والانسان لأن الأحجار الجيرية المنحوت منها التمثال تآكلت بفعل المياه الجوفية والرياح الرملية. وقد خضع الأثر الفرعوني الذي يبلغ طوله 48 مترا لعمليات ترميم عدة....».

وقد عجبت من مرافقنا السياحي أحمد وهو يشرح للسياح الأجانب بأن كلمة (أبو الهول) معناها بالإنجليزية (father of terror) أي (أبو الإرهاب) وهذا ما دفعني وبعض الزملاء في الرحلة إلى تنبيهه إلى خطئه في الترجمة، ثم مدى دلالات ذلك السياسية على الأمر، وكأن للمصريين جذورا في الإرهاب منذ سبعة آلاف سنة أو يزيد، وهذه مغالطة لا ينبغي أن تمر، وعلى كل حال يبدو أنه من النادر أن تتم مراقبة الأداء السياحيين ومدى معلوماتهم السياحية وصحتها، وهم وجه البلد أمام السياح الأجانب، وقولهم مصدق، وموثوق، ولهذا أقترح أن تعمد دائرة الآثار إلى فحص قدراتهم الآثارية والتاريخية، وتصحيح معلوماتهم سواء في مصر أو باقي الدول العربية.

المتحف المصري وكنوزه الهائلة

في ميدان التحرير وسط القاهرة يقع المتحف المصري الذي خصصنا له زيارة وهو يزدحم بالسياح القادمين من شتى أنحاء العالم، ويغصّ بالقطع الثمينة من عهود الفراعنة التي كانت كما أشرت من قبل على قدر عال من الحضارة والتطور العلمي، ويبدو أن معظم أسرارهم المعمارية والطبية والعلمية ما تزال مجهولة، ولقد دهشت وأنا أرى العربات المذهبة، والتماثيل المنتشرة على شتى الأشكال وهي تحرس القبور، وتلك التفاصيل الدقيقة من الألوان الزاهية والرسومات، والأثواب، وحتى ضمة الورد المهداة من أحد الملوك لحبيبته، بل ورأيت أسنان بعض الفراعنة وشعر رؤوسهم ما يزال موجودا منذ أكثر من سبعة آلاف عام، في غرفة المومياءات، وكذلك الفرعون الذي ورد ذكره في القرآن الكريم من زمن النبي موسى عليه السلام. ويقال بأنه رمسيس الثاني، فسبحان الله على معجزته «اليوم ننجيك ببدنك لتكون آية للعالمين».

وعلى كل حال فإن تفاصيل المتحف تحتاج إلى مقالات تفصيلية متخصصة لبيان أهميتها، ودلالاتها التاريخية والحضارية، ولكني أود أن أمر قليلا على تاريخ هذا المتحف الذي شيد في عام 1906 لحفظ الآثار الثمينة من النهب والضياع، بعد أن اجتهد الأجانب وبعض المتواطئين معهم في تهريب الكثير منها، ويروي التاريخ أن محمد علي كان قد أمر بمنع خروج الآثار القديمة من مصر، وبالمحافظة عليها، وأنشأ داراً للآثار بجهة الازبكية بمنزل الدفتردار، ولكن هذا لم يمنع يد السرقة والنهب من أن تمتد إلى الآثار والعاديات القديمة وهذا ما تدل عليه متاحف أوروبا وأمريكا اليوم. بل إن الحكومة ذاتها، وخاصةً في عهد عباس الأول، كانت تهب من هذه الآثار إلى الأمراء والشخصيات المهمة من الأجانب بغير حساب، حتى تضاءلت مجموعة العاديات التي جمعت في دار الآثار، فأمر عباس بنقلها إلي القلعة، فنقلت إليها. وحدث سنة 1855 أن جاء مصر الأرشيدوق ماكسمليان النمساوي زائراً، فأعجبته تلك الآثار، فطلب إلى عباس باشا أن يهبه شيء منها، وكان عباس لا يقدر قيمتها الفنية أو التاريخية، ولا يشعر بواجب المحافظة عليها، فوهبها إياه كلها. وفي غضون هذه المآسي جاء مصر عالم من علماء الآثار كان له الفضل الكبير في الاحتفاظ بآثار مصر، ذلك وهو العالم الفرنسي «ماريت» الذي اشتهر ذكره وعرف فيما بعد بماريت باشا. وقد وصل مصر سنة 1850، موفداً من قبل الحكومة الفرنسية للبحث عن بعض الآثار والمخطوطات، فعكف على التنقيب عن آثار سقارة، وأجرى حفائر عظيمة حتى كشف مدفن العجول (السرابيوم)، وكان يعمل في التنقيب منفرداً، دون أن تكون له بالحكومة صلة رسمية، وقد نقل إلى فرنسا كثيراً مما عثر عليه من العاديات واللوحات الأثرية، وظل يعمل على هذا النحو حتى جعله سعيد باشا سنة 1858 مأموراً لأعمال العاديات بمصر، وقد بذل ماريت جهوداً في التنقيب عن الآثار ونقلت إلى خازن أعدت لها ببولاق.

ولما مات سعيد لقي ماريت من إسماعيل تعضيداً كبيراً، فأمره الخديوي بإصلاح مخازن بولاق وتوسيعها، وافتتحها في حفلة رسمية حافلة يوم 18 تشرين الاول (أكتوبر) سنة 1863، وظلت دار العاديات في تقدم مستمر بفضل مثابرة ماريت ومؤازرة إسماعيل اياه طوال مدة حكمه. وبقي ماريت مثابراً على تعهد متحف الآثار حتى توفي سنة 1881، وقد نقل المتحف إلى الجيزة سنة 1891، ثم إلى مكانه الحالي بجوار قصر النيل سنة 1902.

متحف محمود خليل ولوحاته العالمية

هذا المكان اكتشاف ثمين بالنسبة لي فقد كنت قد سمعت عنه من بعض الأصدقاء التشكيليين الأردنيين، ووجدت في برنامج الرحلة الفندقية فرصة هائلة لزيارته والتمتع بالمجموعة المتميزة من اللوحات التي يضمها والتي لا تقدر بثمن، فهنا يمكن للمرء أن يشاهد أعمالا لمونيه وفان غوخ وديلاكروا، ولعشرات الفنانين المشهورين، ويبدو أن صاحب المجموعة كما قرأت عنه كان فنانا وعاشقا للفنون وهاويا لجمع نفائسها،إضافة إلى كونه رجل سياسة ووزيراً ورئيساً لمجلس الشيوخ في مصر وراعياً للحركة الفنية التشكيلية.

تقول سيرته الذاتية بأنه من مواليد القاهرة عام 1877 م وتوفي بباريس في 31 كانون الاول (ديسمبر) 1953 وقد سافر إلى فرنسا لدراسة القانون عام 1897 وهناك تزوج من الفرنسية اميلين هيكتور لوس وقد عاد وزوجته إلى القاهرة، وأقام بقصره بالجيزة اعتبارا من 1918، وساهم مع الأمير يوسف كمال في تأسيس جمعية محبي الفنون الجميلة عام 1924، وتولى وزارة الزراعة في حكومة الوفد عام 1937، كما أسهم في إقامة معرض فرنسي للفنون الجميلة وفن الديكور بالقاهرة عام 1938، وتولى رئاسة مجلس الشيوخ في الفترة 1939ـ 1940، كما انتخب مراسلاً للأكاديمية الفرنسية للفنون الجميلة في 1948.

أما تاريخ المتحف الذي ضم المعروضات فهو في الأصل قصر محمد محمود خليل وحرمه الذي بناه في عام 1915، وقد شيدت واجهته الشرقية المطلة على نهر النيل على طراز «آرنوفو» ويتجلى هذا الطراز بروعته في الهيكل المعدني والزجاجي الذي يعلو مدخل القصر من تلك الواجهة، أما الواجهة الغربية فيغلب عليها طراز «الكلاسيكية الجديدة» الذي يتيح الجمع بين زخارف من طرز مختلفة في صياغة فنية تتسم بالبهاء والثراء، والواجهة الشمالية للقصر تتصدرها نافذة كبيرة من الزجاج الملون المعشق بالرصاص وتمثل منظراً طبيعياً خلاباً وتبدو للزائر وهي تعلو السلم الداخلي بحيث يمكن رؤيتها من الطابقين الأول والثاني وهي موقعة باسم الفنان الفرنسي «لوسيان ميتي» في عام 1907 وتستغل الأدوار الأرضي والأول والثاني في عرض مقتنيات المتحف أما الدور تحت الأرضي فتشغله الإدارة والمكتبة ومركز المعلومات وقاعة كبيرة لمناقشة البحوث، ولقد ظل القصر منذ إنشائه حتى عام 1960 مسكناً لأسرة خليل ومقراً لمجموعته الفنية الثمينة إلا انه بناءاً على رغبته وتنفيذاً لوصية زوجته تحول هذا القصر في عام 1962 إلى متحف يحمل اسمه واسم زوجته.

على كل حال يبدو أن المتحف هذا أيضا بحاجة إلى زيارة منفصلة مستفيضة للتعرف بشكل هادىء على كنوزه التشكيلية، وما يزخر به من أعمال عالمية لفنانين كبار تقدر بالملايين من الدولارات، وحسنا فعل خليل حينما أتى بكنوز الغرب إلى حصنه فيما ينشغل أبناء الغرب في العادة بأخذ كنوزنا وضمها لمتاحفهم.

وللثقافة وأهلها نصيب

كنت أرغب في العودة لعمان بعد ليلتين من الإقامة في الفندق وثلاثة أيام تقريبا من الزيارات المتواصلة للمعالم التاريخية والحضارية، لولا إصرار الصديق الشاعر أحمد الشهاوي على إبقائي لثلاث ليال أخر، ورغم انشغالاته في مجلة «نصف الدنيا» التي يعمل فيها نائبا لرئيس التحرير فقد استطعت وإياه، أو لوحدي أحيانا زيارة معالم أخرى ثقافية والالتقاء بمجموعة من الأصدقاء والكتاب، وأدين له بواجب الضيافة، ولقائي بأحمد الصغير الفنان التشكيلي القادم، وكذلك بالروائية ميرال الطحاوي القادمة من الهند بعد مشاركة في أحد المؤتمرات الأدبية، وهي استطاعت خلال السنوات القليلة الماضية أن ترسخ اسمها في مجال الكتابة الروائية عربيا وعالميا لا سيما مع الترجمات المتواصلة وأن تنشط في مجال المؤتمرات المتخصصة الأكاديمية والإبداعية، وأدين له تعريفي على المشروع القومي للترجمة المتميز ذي الألف كتاب، وعلى مكتبات صغيرة في حي الحسين وقرب خان الخليلي تضم نخبة من أعمال المتصوفة الكبار، بعضها صدر حديثا. وهي بالنسبة لي ثروة لا تقدر بثمن، ورغم إصابته في كسر بساقه لم يبرأ منه بعد إلا أنه رافقني في أغلب جولاتي، كما سعدت بزيارة «نصف الدنيا» بدار الأهرام ومكتبه المزدحم بالنشرات والكتب وقصاصات الجرائد،ويكاد المرء لا يستطيع الدخول إليه،أو الخروج منه،ومن هناك مررت قليلا على الصديق الأديب عزت القمحاوي، والروائي المعروف جمال الغيطاني، في دار الأخبار، وبالذات في «أخبار الأدب»، والتقيت أيضا في مجلة «أدب ونقد» بالشاعر حلمي سالم، ولا أنسى لقائي المباغت بالصديقة الشاعرة والتشكيلية ميسون القاسمي في ردهات الفندق، حيث اعتدنا على مشاركاتها في مهرجان جرش الشعري، أما محمود قرني الشاعر والزميل في «القدس العربي» فقد تبادلنا الهموم معا، كان يبدو بقبة طبية على عنقه اثر العمل المتواصل، وتذكرت وضعي أيضا حيث بليت مثله خلال الأشهر الماضية.... وقد تجولنا قليلا في سور الأزبكية الذي لم يعد سورا تنشر عليه الكتب بل مجرد أكشاك كثيرة، يمكن للراغب في البحث عن كتب نادرة أو رخيصة أن يجد بغيته شرط أن يتحلى بالجلد وطول البال والوقت وقد التقيت مع محمود بصديقنا وزميلنا أيضا في «القدس العربي» خيري منصور الشاعر والكاتب إذ كان هناك أيضا زائرا وشبه مقيم، حيث نشاطه المتواصل في النشر والكتابة في «وجهات نظر» والالتقاطات المبتكرة في هجاء المثقفين، والحال السياسي بالكثير من التورية، وإصدار الدواوين الشعرية الجديدة عن دور النشر المصرية، كان يبدو مبتهجا من تجربته في القاهرة، وسعة أفقها الحضاري، وبدت مقارنته إياها بعمان غير عادلة، ولا أنسى جلستنا العجلى في مقهى ريش، ومقهى زهر البستان، مع بعض المثقفين والكتاب، وذلك اللقاء الخاص في «غروبي» مع الروائي محمد ناجي الذي حملت له نسخا من روايته «مقامات عربية» الصادرة حديثا عن دار نارة الأردنية للنشر والتوزيع، والحوار المعمق بيننا الذي ينتظر التواصل.

من الواضح أن القاهرة تحتاج في جانبها الثقافي إلى زيارة متخصصة، فما بالكم بالجوانب الأخرى، على أن من يعرف القاهرة لم يعرف مصر بعد، فماذا عن الإسكندرية، والأقصر، والنوبة، والمدن الأخرى؟

تلك كانت مجرد تحية ولقاء تجريبي أولي أسعى من خلاله إلى التوجه في قادم الأيام إلى جعل مصر محجتنا التي نصلها،كما نصل بيوتنا، وقد ودعتها، كما دخلتها، متذكرا جماليات أرضها، وطيب أناسها، وذلك الوصف القرآني الخالد لها:

«أدخلوا مصر إن شاء الله خالدين»

---

* كاتب وصحافي من الاردن.